



محمد سعيد رحبا

إذا كان لكل عصر رمز وعلامة تطور يوسم بها، فإن حقبتنا الحالية من الألفية الثالثة يمكن وسمها بأنها حقبة الثورة الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي والمحتويات الرقمية بامتياز.

هذه الوسائل التي حققت انتشاراً غير مسبوق حول العالم (على سبيل المثال يستقطب موقع فيسبوك 1.5 مليار مستخدم شهرياً، يليه موقع يوتيوب، ثم واتس أب) جسدت الابتكار الأبرز الذي يميز عصرنا هذا في سبق علمي، تمثل في اختراع وتطوير وسائل التواصل الاجتماعي عبر الشبكة العنكبوتية، وسهولة الوصول إلى أي معلومة مطلوبة بصورة سلسلة ويسيرة، خصوصاً عبر الأجهزة اللوحية، وأجهزة الهاتف المحمول، المنتشرة بين مختلف الفئات العمرية.

ومما لا شك فيه أن لهذا التطور التقني إيجابيات وسلبيات. وقد أضاء الكثير من المفكرين والكتاب المختصين حول هذه المسألة من زاوية تنتقد وسائل التواصل الاجتماعي، متناولين مساوئها وإسهامها في زيادة عزلة الفرد عن محيطه الاجتماعي، الواقعي. وإذا قاربنا هذا الموضوع من زاوية أخرى، لوجدنا أن انتشار وسائل التواصل الاجتماعي واتساع تداول المحتوى الرقمي قد وسع آفاقنا، وجعلنا أكثر تعطشاً للمحتوى مما كنا عليه منذ نحو عقد من الزمن. فبينما كان الحصول على جرعة يومية من المحتوى المعرفي (المعلوماتي أو الدعائي أو حتى التواصلية) يتم عبر الوسائط التقليدية الورقية في الأغلب كالصحف والمجلات، فقد أصبح المحتوى المتاح اليوم أكثر ثراء وإتاحة، ما أسهم في تعزيز الثقافة العامة، والقدرة التحليلية، والمتابعة الحية لأحداث العصر، والتفاعل النشط مع قضاياها، وكلها مكتسبات معرفية إيجابية تحققت بفضل وسائل إتاحة ونشر المحتوى ووسائل التواصل الاجتماعي. كما أسهمت الأجهزة الرقمية (كالهاتف المحمول والأجهزة اللوحية) في تحفيز الرغبة والحاجة إلى «ملء» المساحة العقلية للأفراد بالمحتوى الحيوي والمتفاعل مع اهتماماتهم.

ربما أدت الإنترنت بالفعل، منذ نهاية القرن الماضي، إلى وفرة معلوماتية غير مسبقة مع سهولة الوصول إليها. ولعلنا جميعاً أصبحنا معتادين على أنه لدى السؤال عن أي أمر، يكون الرد الأول: «غوغلها»، أي ابحث عنها على محرك البحث الأشهر غوغل. لكن وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت تقوم حتى بتلك المهمة، في تيسير هائل للوصول يضاف إلى الوفرة في الإتاحة. لقد دعت الكثير من التوصيات السابقة في هذا الإطار، إلى «ترشيد استخدام» وسائل التواصل الاجتماعي، وفي تصوري أننا قد تجاوزنا هذه المرحلة، مع التطور والانتشار المتزايد لهذه الوسائل ومنصاتها ومستخدميها، مما يستوجب إعادة تقييم أفق التعامل مع هذا التطور الرقمي على كافة المستويات عبر تقديم الدعم والتوجيه اللازمين لمنتجي ومقدمي المحتوى الرقمي على كافة المستويات.

لقد أسهم عقدنا الحالي، وبسبب توافر تكنولوجيا الوسائط، في تمرين العقل والوعي لدينا، فأصبح أكثر تطلباً للمحتوى باختلاف أنواعه، ولناخذ نموذجاً حياً على ذلك، من ممارساتنا الاجتماعية في حياتنا اليومية: حين تقوم عزيزي القارئ بالاجتماع مع الأهل والأصدقاء في لقاء أسري اجتماعي، وتحدث في موضوع ما يثير اهتمامكم (ككرة القدم مثلاً)، وبعد فترة قد ينقطع تبادل الحوار بين الجميع (إما لاستنفاد الموضوع كافة أبعاده وزوايا طرحه، أو لأنه صار مملاً ومطولاً).. هنا ستجد نفسك في الأغلب (والكثير من الحاضرين أيضاً) قمت - لا شعورياً - بالتقاط هاتفك الذكي، للبحث فيه، عبر منصات التواصل الاجتماعي، عن قضية أخرى جديدة «تملاً» عقلك باهتمام آخر، بمجرد توقف الحديث، وقد بدأ الجميع يبحث عن محتوى يلقي اهتمامهم، أو يحرك شغفهم، وأنت من بينهم.

ومن هنا تأتي أهمية وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات التفاعلية، وأجهزة استخدامها، التقليدية أو اللامسية، ومختلف أنواع المحتوى الإعلامي الرقمي التي تعد إضافة معرفية وقيمة مهمة إذا أحسن استخدام المحتوى المقدم عبرها، ليساعدنا على توسيع قدراتنا التحليلية ودعم رصيدنا المعلوماتي والثقافي.